صلاح الدين الأيوبي أيضاً وأيضاً

الشيخ د. جعفر المهاجر

(1)

قرأت مقالةً الكاتب العراقي المعروف علاء اللامي تحت عنوان (صلاح الدين الأيوبي بين الهجاء المذهبي والتقييم الموضوعي) . (الأخبار 2017/8/17 ، ص/ 10—11) . فرأيته قد قال حقاً فيما هو تحت عنوان "الهجاء المذهبي" (والمديح المذهبي أيضاً ، وإن لم يقُل ذلك) . ولكنه سكت عن الشطر الثاني ممّا تعهّد به لقارئه ، فلم أرَه يُفصح عمّا يصحّ أن يُسمّى "التقييم الموضوعي" لصلاح الدين . صارفاً جهده إلى استنكار "**الهجاء السياسي الفارغ من أي مُحتوى رصين ، وليس له هدفٌ سوى التنفيس عن الغيض** " (يقصد : الغيظ . والفرق بين الضاد والظاء مشكلة المشكلات في القلم العراقي) . هذا كلامٌ صحيح إجمالاً . ومع ذلك فلا يمكن أخذه بوصفه تقييماً موضوعياً خالياً من الأغراض لصلاح الدين . لذلك فقد رأيت أن من المفيد أن أُضيف إلى ما أتانا به ما يسدُّ موضع النقص فيما تعهّد به . وبذلك أكون قد وضعتُ في حسابه الجاري هبةً مجانيّةً ، تُبرئ ذمته تجاه قارئه . ولا يُحمَدُ إلا الله .

(2)

من المؤكّد أن صلاح الدين لم يكن ملاكاً لاعيب فيه ولا مأخذ عليه . بدأ ضابطاً صغيراً بخدمة نور الدين محمود زنكي ، السلطان التركي ذي السّطوة . أما هو فكان من الكُرد ، ذلك الشعب الذي لم يدخل في الدماء ، ولم يسعَ إلى بناء سُلطة على قاعدة عسكريتاريا مُحترفة ، كما فعلت الشعوب التركيّة . وعن هذا الطريق بنت دُولاً ، ما يزال بعضها قائماً ، في رأسها طبعاً الدولة التركيّة اليوم ، بالإضافة إلى الجمهوريّات التركيّة في آسية الوسطى . أمّا الكُرد فغاية ما فعلوه في هذا النطاق أن يكون منهم ضباطٌ صغار ، مُلتحقين بخدمة أمير او سلطان تركيٍّ كبير . من هؤلاء صلاح الدين ، الذي التحق بخدمة نور الدين كما قُلنا ، بمَن حوله من عشيرته الصغيرة وبني قُرباه . وعن هذا الطريق نجح في أن يبني الأسرة الكردية الوحيدة الحاكمة في تاريخنا . التي كانت أشبه بجُملةٍ مُعترضة بين التُّرك من قبلها وبعدها . ومن هؤلاء بفاصلٍ زمني العثمانيون من بعدها . أمّا كيف فعل ذلك ، فتلك قصّةٌ تستحقّ أن تُروى ، لِما فيها من فصْل الخطاب فيما يخصُّ إشكاليّة البحث .

(3)

ميزة صلاح الدين الأساسيّة التي صنعت مجده ، أنّه كان ذرائعيّاً (براغماتيّاً ، لمَن تُعجبهم العبارات الأجنبيّة) بكل ما للكلمة من معنى . وضع لنفسه ولمَن اتّبعه هدفاً مُعلنا هو القضاء على الاحتلال الصليبي وإماراته العديدة ، تماماً كما فعل وليُّ نعمته نور الدين . لكنّ الفرق الفارق بين الاثنين أن نور الدين كان تركيّاً ، وككلّ الأتراك كان حنفيّ المذهب على الطريقة التركيّة في التّمذهب . مُشكلة الشعوب التركيّة ، التي ما تزال عالقةً حتى اليوم ، أن خبرتهم في الإسلام انحصرت وحاصرتهم في المذهب الذي صادف أن عرفوا الإسلام من خلاله . ومن هنا فإن نظرتهم إلى المذاهب الأُخرى غيريّة دائماً ، وإن بدرجاتٍ مختلفة .

تبدأ بحرمان غير الحنفي من الوظائف الدينيّة (الفتوى ، القضاء ، الولاية على الأُمور الحسبيّة) ، وانتهاءً بإخراج غير أتباع المذاهب الثلاثة الأُخرى من الملّة . ومن هؤلاء طبعاً الشيعة بكافة اتجاهاتهم . ومن ذلك أن نور الدين عندما عرض عليه الملك الأفضل أمير الجيوش في الدولة الفاطميّة ، وهو شيعيٌّ إمامي ، أن يضع يده بيده ضدّ المُحتلّين الصليبيين ، رفض ذلك رفضاً قاطعاً بعد تكرار العرْض ، لأنّه لايضع يده بيد شيعي ، حتى قِبال العدو المُشترَك . ولنُسجّل أن هذه أوّل مرّة تُعلن فيها في الإسلام صراحةً سياسةٌ عُليا قائمةٌ على تصنيفٍ مذهبيٍّ بهذه المثابة من الحَدّيّة .

أمّا صلاح الدين فقد فتح ذراعيه لكلّ مَن أتاه مُحارباً للصليبيين ، دون أدنى اعتبار إثنيّ أو مذهبيّ. والحقيقة أن عسكره كان تجمُّعاً لجيوش ، لكلٍّ منها أميره ، لايتقدّم إلى القتال إلا بأمرٍ منه . القرارت القتاليّة التكتيكيّة تؤخذ في مجلسٍ عسكري ، يضمّ أُمراء الجيوش ، طبعاً برآسة صلاح الدين . كان هو شافعيّاً ، كأكثر أبناء البيت الأيوبي . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون أُمراء جيشه من غير مذهب . بل كان أعلاهم شأناً في أيامه الأخيرة قبل وفاته أميرٌ شيعيٌّ عامليّ ، هو الأمير حسام الدين بشارة الغسّاني .

ذرائعيّة صلاح الدين تبدو لنا بكامل الوضوح في أن أحد أبنائه ، أبو الفتح غازي ، الذي سيُعرَف فيما بعد بالملك الظاهر، كان شيعيّاً ، فولاّه على حلب التي كانت في ذلك الأوان آهلةً بالشيعة . وعيّن له شحنة (مسؤولاً عن الأمن ، أو كما نقول اليوم رئيساً للشرطة) ضابطاً شيعيّاً . هونفسه الذي غدا فيما بعد الأمير حسام الدين بشارة ، بعد أن أثبت وعسكره كفاءةً في ميدان القتال ، خصوصاً في معركة حطّين الفاصلة ، ثم في معارك أُخرى منها معركة قلعة الطور قرب عكّا .

ثم أنه ما من دليل أبداً على ما يُشاع ويُذاع أن صلاح الدين اضطهد أحداً لأسبابٍ مذهبيّة . بل إن القارئ اللبيب يستطيع أن يرى بسهولة أن ذلك يتناقض مع العنصر الأساسي من سياسته ، وعبّرنا عنه أعلاه بأنه ميزته الأساسيّة ، الذي يدين له بكلّ إنجازاته .

(4)

تلك هي إجمالاً الصورة الصادقة لصلاح الدين ، بعيداً عن الأهواء والإسقاطات الناشئة من ميول ذوي الميول . ومن الغنيّ عن البيان أن أُنموذجه التوحيدي ، الذي يُزيح جانباً عوامل الفرقة ، لحساب ما يجِب أن يكون الأمر الجامع في الرأي والموقف ، هو ما ينقصنا اليوم .

ومع ذلك فإننا نُكرّر ما قلناه أعلاه ، أنه لم يكن بريئاً ممّا يُشين . في رأس ما يؤخذ ويُؤاخذ عليه ، أنه وقع في الخطيئة القاتلة التي لم يتحرّر منها العقل العربي حتى اليوم . هي النظر إلى السُلطة بوصفها تركةً شخصيّة . أي أن التقرير بشأنها يعود لصاحب التركة . ومن ذلك أنه ما أن شعر بقُرب أجله حتى وزّع مملكته الشاسعة إقطاعاتٍ على أبنائه . مع حصةٍ وازنةٍ لأخيه الداهية الشّره الملك العادل . وبذلك أسّس ضمناً وبالضرورة مسلسلاً من الصراعات الدّامية بين الورثة من أبناء البيت الأيوبي ، ضربت على غير إنجازٍ من إنجازات سيّدها المؤسس ، وعجّلت بانهيار الأُسرة إلى أن بادت .